السينما الوثائقية تعيد قراءة تاريخ جمال عبدالناصر

«إرفع رأسك يا أخي»: عنوان فيلم وشعار مرحلة

القاهرة ـ «القدس العربي»

ـ من كمال القاضي:

على خلفية الأحداث السياسية الجارية في المنطقة العربية وجذوة الحريق الذي أشعله إعدام الرئيس العراقي صدام حسين وبتزامن الاحتفال بيوم ميلاد الزعيم جمال عبدالناصر، عرضت نقابة الصحافيين الفيلم الوثائقي «ارفع رأسك يا أخي» للمخرج اللبناني سايد كعدو.

ويأتي العنوان في سياقه الزمني وظرفه التاريخي الحرج بمثابة نداء موجه للأمة العربية والشعوب الحرة الأبية وهو استدعاء للمقولة الشهيرة التي رددها عبدالناصر للبرهنة على دحض الاستعمار ودفع الجماهير إلى نسيان عذابات الماضي والمضي قدما على طريق الحرية والاستقلال، وحيث أن المشاهد التي تضمنتها البانوراما المصورة الزاخرة احتشدت بالصور التسجيلية التي تؤكد المعنى المقصود في العبارة التاريخية الآثرة فقد جاءت الحالة السينمائية مجانسة ومطابقة تماما للواقع الثوري ومتسقة مع الروح السائدة آنذاك، ولأن المخرج والسيناريست أحد المؤمنين بالفكر القومي صارت أحداث فيلمه على وتيرة سياسية واحدة مستهدفة إبراز التفاصيل الدقيقة والعميقة في مسيرة الزعيم الخالد الذي لقبه سايد كعدو بصديق الفقراء كنيةً وانتماء وتوثيقا لجهده المضني في سبيل نهضتهم وضمان استقرارهم وأمنهم. لم يشأ المخرج أن يبدأ بنيانه السينمائي من حيث بدأت المسيرة التاريخية لبطله مع تاريخ قيام ثورة يوليو 1952 ولكنه على العكس تماما فقد بدأ من نقطة فاصلة وفارقة يتصورها البعض نقطة الضعف في تاريخه السياسي، فالبداية كانت من خطاب التنحي الذي ألقاه عبدالناصر عقب وقوع نكسة «67» ورغم أن الاختيار كان صادما ودامعا إلا أن دلالته جاءت بليغة وموحية، لا سيما أن ما يتصوره المعارضون نقطة ضعف كان فرصة ثمينة لإعادة تصحيح الأوضاع ومحك اختبار حقيقي لشعبية جمال عبدالناصر، خاصة وأنه اعترف صراحة بمسؤوليته عن النكسة وأبدى استعداده لتحمل كافة النتائج، فيما كانت المفارقة في ذلك الزحف المروع للجماهير التي جاءت من كل صوب تطالبه بالعدول عن قراره وتعلن تمسكها به رئيسا للجمهورية العربية المتحدة، ولم يكن التصرف التلقائي من الجماهير غير استفتاء حقيقي على نزاهة الرجل وجدارته بالموقع والمكانة، لذا فإن البدء في سرد الأحداث من خطاب التنحي كان رؤية موضوعية تم تقييم الحدث فيها وفق النتيجة النهائية التي وصل إليها الشعب مع القيادة على ضوء السجال المفتوح حينئذ وقوة الإرادة الشعبية المواجهة لقرار عبدالناصر بالتنازل عن حكم البلاد. من هذه البداية انطلق كعدو في عرض انجازات الرئيس متكئا على استشرافه للمستقبل للتدليل على خاصية بُعد النظر التي كان يتمتع بها ناصر في رصد ما يدور حوله من أحداث تتصل بالصراع العربي الصهيوني تارة وبالمطامع الأمريكية في المنطقة العربية تارة أخرى، وهو ما ورد بوضوح في خطبه وتضمنه الفيلم ليربط الحاضر بالماضي ويزيح الغشاوة عن عيون الداعين للسلام والمتعلقين بوهم المصالحة، ففي نص كامل لاحدى خطبه المهمة يكشف الرئيس جمال عبدالناصر النقاب عما جرى بينه وبين مبعوث الرئيس الأمريكي جونسون موضحا المساومة التي تعرض لها مقابل التخلي عن مشروع الوحدة العربية، وكيف أنه تلقى وعودا لتسليح الجيش المصري إذا ما وافق على هذا العرض، بيد أنه أشار أيضا في موضع آخر الى المؤامرات التي أحاطت به وشكلت معضلات حقيقية أمام العملية التنموية ووحدة الصف العربي، ذات الأشياء التي ضمنها المخرج في سياقات مهمة راعى فيها البعد القومي والتزم بخصوصية التجربة الناصرية بكافة جوانبها الاجتماعية والسياسية والدينية ولامس بها أطراف الفتنة التي أرادت قوى الامبريالية إيقاع مصر فيها حين ألمحت إلى وجود تفرقة عنصرية بين المسلمين والأقباط.

وبدوره استطاع عبدالناصر أن يفسد على المتآمرين خطتهم بإعلان مبدأ المساواة في الحقوق والمواطنة بين عنصري الأمة.

وفي تداخل بنيوي للمشاهد الوثائقية اتبع المخرج اللبناني سايد كعدو نظرية التصعيد الشعوري لإعطاء المشاهد فرصة امتصاص رحيق المعاني مستهدفا وحدة الإحساس عند المتلقي وتوحده مع الفكرة الرئيسية لاستلهام التاريخ وإسقاطه على الحاضر لفضح الفروق السلبية والتباينات الفجة بين شعار المرحلة الناصرية الرامي الى القتال والمقاومة والمزاعم الراهنة للسلام المذبوح على قارعة الطريق في فلسطين والعراق ولبنان، وكذا يركز المخرج عبر مشاهد رئيسية في رحلة عبدالناصر ضد العدو ملقياً الضوء على قرار تأميم قناة السويس وبناء السد العالي كإشارات واضحة للتحدي والجسارة مبيناً ايجابية التلاحم الشعبي الدافع إلى تثبيت قناعات القيادة السياسية وإصرارها على الصمود كخيار وحيد لتحقيق الاستقلال والنهوض، وسعيا لتوسيع مجال الاستقراء يطرح الفيلم المشتركات بين الدول العربية فنلمح في مختاراته الوثائقية بعض الجمل ذات الدلالات حول نزوع إسرائيل إلى السيطرة على المرتفعات السورية بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية، غير أن الأدهش من ذلك ما ذكره ناصر مبكرا حول رهان إسرائيل الدائم على إبرام اتفاقية سلام مع مصر كرؤية استراتيجية تمكنها من التغلغل داخل المنطقة ونشر ثقافة مغايرة لثقافة التحرر والاستقلال إيذانا بفرض ثقافة التبعية وإحكام قبضتها على الدول المجاورة والمتاخمة لحدود مصر، على أن تتخذ من فلسطين قاعدة عسكرية رئيسية تنطلق منها إلى حيث تشاء وفق أجندتها السياسية الهادفة الى الاستيطان.

ويقودنا الفيلم الى مناطق ومساحات واسعة من المعرفة ويثير العديد من التساؤلات حول طبيعة المشروع الصهيوني الأمريكي والعلاقة بين الأمس واليوم، كما تتجلى الصور النادرة بوافر المعلومات وتشف عن حقائق تاريخية ليس بوسع السينما الروائية تقديمها بهذا الوضوح لوجود العائق الرقابي وفداحة التكلفة الانتاجية التي ربما تصل الى مئات الملايين لو تم تجسيد كل الأحداث الستينية طبقا للصورة الواقعية، وهذا ما جعل التوثيق ضرورة تغني عن البديل الدرامي وتقرب المسافة الزمنية البعيدة التي تفصل الحدث التاريخي عن الواقع الآني وتحيله إلى متحف الذكريات.

تميزت تجربة سايد كعدو بالاتقان والحرفية الشديدة في التقطيع والمونتاج والحساسية المفرطة في اختيار اللقطات التأثيرية دون مبالغة أو مغالاة، فضلا عن الذكاء في الإلمام بكافة الجزئيات المتفرقة على امتداد الحقبة الناصرية كلها ودمجها في وحدة واحدة كأنها عمل فني تم تصويره للتو فاكتسب سخونته من طزاجة الأحداث وحضور الشخصية المحورية التي تبدو حيوية وفاعلة طوال الوقت، خاصة لأن الخلفية الغنائية بصوت عبدالحليم حافظ عززت هذا الإحساس وجددت بالفعل الدماء في شرايين الماضي البعيد فبدا مشتعلا ومضيئا، إذ أن العلاقة بين الأغاني الثورية ورحلة عبدالناصر النضالية أصبحت فرضية بحكم ما ترجمته الأغنيات الوطنية من مشاعر وأحاسيس كانت تتويجاً للآمال والأحلام وعنوانا صادقا لما آمنت به الجماهير وجسده عبدالناصر.

ملصق الفيلم

اعتبرها المثقفون خطوة مهمة لدعمهم:

الاردن يخصص 10 ملايين دينار لإنشاء صندوق الثقافة وبناء دارة للإبداع والفنون

عمان ـ «القدس العربي»:

في خطوة مهمة ستساهم في دفع عجلة الحياة الثقافية في الأردن ودعم المثقفين والانتهاء من همومهم غير الإبداعية مثل السكن والتأمين الصحي والنشر وغيره قرر الملك عبدالله الثاني تخصيص 10 ملايين دينار (نحو 13 مليون دولار) لهذا العام لإنشاء صندوق لدعم الحركة الثقافية وتعزيز قيمها الوطنية، كما أمر ببناء مركز ثقافي ضخم وشامل يكون معلما مهما على غرار المراكز الثقافية الكبرى في العالم ستتم المباشرة به خلال شهر حزيران (يونيو) المقبل، ويتوقع أن يتكون المركز من قاعة أوبرا رئيسية من عدة مستويات وشرفات مجهزة بكامل التقنيات الفنية وتتسع لأكثر من 1500 شخص، تخصص لعروض الأوبرا والمسرح الغنائي وعروض فرق الأوركسترا الكبيرة ومراكز للفنون والمكتبة العبدلية وقاعات فنية وتدريب ومتحف وقاعات متعددة الأغراض.

وقد جاءت هذه القرارات خلال لقاء الملك نخبة من الكتاب والمثقفين الأردنيين في قصر بسمان، كما وعد الملك بدراسة جميع المطالب وفي مقدمتها التأمين الصحي وتوفير مقرات للهيئات التي تعنى بالشأن الثقافي، مؤكداً على أهمية الدور الذي يلعبه المثقفون في تنمية المجتمعات، معرباً عن أمله في أن يكون عام 2007 عام خير على مثقفي الأردن.

ومندوبا عن مثقفي الأردن ألقى الناقد والأكاديمي البارز د. خالد الكركي كلمة قال فيها: «ها نحن امام التصور الذي استقر بعد حوار بين نفر من اهل الثقافة وبين زملائهم في الديوان الملكي العامر وبعد مراجعة الخطط والتوصيات الصادرة عن مؤتمراتنا وهيئاتنا الثقافية، ما غاب عنا ان حوارنا كان في المكان نفسه الذي شهد انطلاقة الحركة الثقافية منذ عهد الامارة، وان المشروع الثقافي الوطني قد تأسس في امتداده القومي والاسلامي على صورة الدولة الاردنية في خلقها السمح او الوعر، ونأيها عن التعصب والتطرف والانغلاق، ومن صبر اهلها على اوجاع الزمان، وهم يبنون مدرسة كل اسبوعين وجامعة كل سنة وهم يقاتلون على اسوار القدس دفاعا عن الارض والحق والمقدسات».

واكد الدكتور الكركي ان مثقفي الاردن حريصون على اضاءة صورة الوطن في المشهد الانساني، وقال: «تعلمنا ان الذين لهم وطن ينسجون عباءته من خيوط الشمس والأرجوان ويجعلون دماءهم فداء له، حتى لا تتناثر الخيوط في الرمل او يلمس حريرها طامع او إرهابي او جبان».

وأضاف: «ان المثقفين والفنانين دعاة ثقافة وطنية منفتحة تشكل هويتنا العربية والاسلامية، ويسعون نحو نتاج ثقافي وفني متميز تدعمهم وزارة الثقافة التي أطلقت خططها للسنوات القادمة وفي طليعتها اختيار مدينة للثقافة الاردنية كل سنة»، مبينا «ان هذا الجهد كله تسنده حركة دور النشر والمكتبات وهو علامة على حركة ثقافية فيها روح من جغرافيا الوطن واقباس من تحولات اهله..اضافة الى سمات الحداثة والالتزام بالحرية والحق والمستضعفين والوقوف في وجه الاستلاب والتغريب وسائر دعوات الجاحدين والجامدين».

وبعد ذلك عرض الكركي مجموعة من المطالب التي تخص المثقفين.

من جهة أخرى استمع الملك الى عرض قدمته مديرة مركز الفنون الادائية المخرجة لينا التل حول التنمية الثقافية في الأردن وما تواجهه من تحديات وكذلك توصيات من شأنها ان تطور هذا الواقع، وقالت في سردها لحقائق رئيسية حول الثقافة انها عنوان الشخصية الوطنية والتي تميزها عن غيرها في حدود الجغرافيا والتاريخ ويستند الكيان الثقافي على مجموعة من القيم التي يؤمن بها الأفراد والجماعات، وبالتالي فإن البعد الثقافي هو الذي يحدد درجة الرقي والتحديث ويعطي للثقافة القدرة على الانطلاق والبقاء، واكدت التل ان الأجندة الوطنية حددت معالم الثقافة المطلوبة، وهي ثقافة وطنية عربية تستند الى تعاليم الإسلام السمحة بغية بناء نموذج ثقافي وطني يستفيد من منجزات الآخر وينتج خطاباً عصرياً عقلانياً يؤمن بالحوار والتعددية وينبذ التعصب والانغلاق.

كما قدمت التل عرضا حول التحديات التي تواجهها التنمية الثقافية في الأردن المتمثلة في عدم قدرة الحركة الثقافية على إيصال الثقافة الأردنية وتسويقها في الداخل والخارج وضعف تفعيل السياسات والاستراتيجيات الوطنية الواضحة للحركة الثقافية.

كما تعاني الحركة الثقافية من ضعف التنسيق بين الجهات القائمة على التنمية الثقافية (الجهات الرسمية، مؤسسات المجتمع المدني، القطاع الخاص) وعدم توفر الموارد المالية الداعمة لقضايا الإبداع والتميز الثقافي وتردي الأوضاع المعيشية والاقتصادية للمثقفين والمبدعين والفنانين وسيادة توجهات ثقافية يشوبها التطرف والتعصّب والانغلاق، وذلك في مقابل واقع أردني قائم على التعددية الفكرية والسياسية والثقافية.

ولم يغفل العرض الذي اشرف على اعداده العديد من المثقفين الاردنيين في تحديد التحديات التي تواجه الحركة الثقافية التطرق الى مسألة الاعتماد على قيم النظام الاجتماعي التقليدي وتأثيرها على التنشئة الاتكالية والحد من مشاركة فعالة لقطاعات معينة كالشباب والنساء واستمرار تأثير بعض القيم الاجتماعية السلبية مثل (المحسوبية، وعدم الالتزام بالقانون، والواسطة، والاتكالية) وضعف البُنى التحتية لقطاع الثقافة في معظم محافظات المملكة، وتركيز الفعل الثقافي في العاصمة وعدم وجود صرح ثقافي متميز في الأردن أسوة بباقي دول العالم يُعطي مدلولات عن واقع الحراك الثقافي بالأردن.

هذا بالاضافة الى عدم ملاءمة بعض التشريعات والأنظمة التي تنظم الشأن الثقافي والفني وعدم توفر قاعدة بيانات ثقافية حسب نوع المنتج الثقافي وجهة إنتاجه.

وحدد العرض العديد من التوصيات اللازمة لتطوير الثقافة الوطنية على المدى القصير والتي تتمركز حول إنجاز مشروع قانون اللغة العربية، تأكيداً لدور اللغة العربية (لغة القرآن الكريم والحضارة الإسلاميّة)، ويُشار إلى أن مشروع القانون ما زال موضع بحث للسنوات العشر السّابقة، ولم ير طريقه للتنفيذ بعد وتأسيس صندوق مستقل لدعم الحركة الثقافية: المساهمة في توفير الدعم المادي لتنمية الحركة الثقافية والنشر والإبداع ورفع مستوى الخدمة الثقافية وتحقيق كفاءتها ووضع الخطة اللازمة للمشاركة في توفير التمويل اللازم للمشروعات الثقافية.

كما طلب المثقفون توفير الدعم لصندوق دعم الحركة الثقافية للإسهام في تحقيق التنمية الثقافية وتعزيز قيمها الوطنية وصون هويتها وتأكيد أصالتها وإقامة المؤسسات الثقافية الكبرى واستكمال البنية الأساسية للعمل الثقافي وجمع وتوثيق التراث الثقافي وحماية الموروثات الثقافية والحضارية والتاريخية والحفاظ على الآثار والمعالم التاريخية وصيانتها وإنشاء المتاحف وحماية المخطوطات القديمة وترميمها.

ويسعى الصندوق وفق العرض الى الاهتمام بالإبداع الثقافي والفني الوطني بكافّة وجوهه واحترام استقلاليته وحريته في التعبير ودعم وتشجيع الأبحاث والدراسات الخاصة بالتراث الثقافي وتشجيع المبدعين عبر منحهم الجوائز بالإضافة إلى تطوير الصناعات الحرفية والأعمال اليدوية ووضع البرامج اللازمة للحفاظ عليها وتوفير التأمين الصحي لغير المشمولين بالتأمين من أعضاء الروابط، والاتحادات، والهيئات الثقافية والفنية والمساعدة على توفير فرص العمل للمثقفين والمبدعين وتمويل البرامج والأفكار الريادية الثقافية والفنية.

من جهته طالب رئيس رابطة الكتاب والأدباء الأردنيين د. احمد ماضي بشمول المثقفين بمظلة التأمين الصحي والإسكان لهم أسوة بالقضاة والصحافيين.

وقال ان هذا اليوم تاريخي وسيدخل التاريخ من اوسع ابوابه لأن الشأن الثقافي غدا هما ملكيا ساميا، الامر الذي يعني حسبه ان الحكومات المتعاقبة ستعنى بهذا الشأن الذي عانينا من عدم الاهتمام به سنوات طويلة معربا عن تطلعه إلى ان يعامل الكتاب كغيرهم من مكونات المجتمع.

وطالب الماضي أيضا باقرار نظام التفرغ للمثقف الأردني وإعادة إحياء مديريات الثقافة في المحافظات ودعمها بشكل جدي لانه لا بد من إحياء الثقافة باطراف العاصمة عمان. والتمس ماضي من الملك ان تعامل الرابطة كما تعامل مختلف النقابات والهيئات كالصحافيين والقضاة حيث تشملهم المكرمات الملكية من اسكانات وتعليم اولادهم والتأمين الصحي.

وطالب ماضي بضرورة مشاركة القطاع الخاص بشكل فاعل في رفد ودعم العمل الثقافي من خلال تبني بعض الاعمال والابداعات الثقافية مشيدا بدور امين عمان الكبرى السابق نضال الحديد الذي وصلت فيه الامانة خلال فترة توليه موقعه فكانت حاضرة بشكل كبير في المشهد الثقافي متمنيا على الامين الجديد عمر المعاني مواصلة ذلك وزيادة الاهتمام.

وكان رئيسا اتحاد الكتاب الأردنيين ومجمع اللغة العربية قد تحدثا في اللقاء، وقرأ أخيرا الشاعر حيدر محمود قصيدة خاصة بالمناسبة.

فيمينسونجي
Feminiswanji

سليم البيك*

■ في إحدى جلسات الحوار العقيمة مع رفيقة نسوية، Feminist، من بلجيكا، كنت أحاول، هازئاً ومازحاً حتماً، وعابثاً طبعاً، إقناعها بأن المجتمعات العربية أكثر حرصاً على حقوق المرأة من غيرها وذلك لأنها مجتمعات ذكورية. وقلت في محاولتي الفاشلة بامتياز ما يلي: نحن الذكور العرب نناضل من أجل حقوق المرأة أكثر من غيرنا.

نرى أن الرجل هو من يقع على عاتقه الدفاع عن المرأة أكثر منها هي نفسها. حينها افتر ثغرها عن هالة نمّت عن بلاهة، واتّسعت عيناها المندهشتان كأنّما هبطت عليها كلماتي من كوكب آخر. بعد قليل من الصمت تابعت حديثي محاولاً انتشالها مما هي فيه من ضياع مؤكداً: نعم، نحن الرجال العرب العروبيين، وهنا ارتفعت قبضتي فجأةً لتتوسطنا، ثمّ زمجرت هادراً بتلقائية أُحسد ـ كعربي ـ عليها مكشّراً عن رجولتي أمامها تماماً كرجل يتحاور مع «حرمته»، ومندمجاً كلياً فيما أقول: نحن الرجال نناضل لحقوقكن أكثر منكن، ونضالنا الحتمي هذا صدر، كما دائماً، عن كامل دراية ودراسة وتمحيص وتحميص وطبخ للفكرة إلى أن اختمرت وناسبت مجتمعاتنا التي أصبحت ـ كالنساء يعني ـ تربة خصبة لإنجاب الأطفال والنهوض بمجتمع فتي....

ضعتُ وضاعتْ، عند هذا الحد أغلقت بوقي حين شعرت بأن الصورة التي أفرزها لاوعيي لتمر بين الكلمات مشوشة تماماً وعجزتْ عن اخراج الفكرة من دهاليزها المعتمة، ظلت رفيقتنا تائهة ومشتتة ما بين سخريتي وبين تقطيب حاجبي وكز أسناني وشموخ قبضتي ونعاق صوتي أثناء طرح فكرتي محاولاً إغواءها واستدراجها لفكرتي.

بعد أن هدأتُ وهدأتْ نظرتْ إليّ متسائلة عن سبب هذا الموقف الرجولي النخوجي بلهفة متوقعة مني «عقداً اجتماعياً» جديداً قد يَتبنونه كحركة نسوية في البرلمانات والصبحيات التي تُعقد بشكل دوري. كانت حجتي بأن النساء في مجتمعاتنا لا يملكن الوقت الكافي للمطالبة بحقوقهن، فوقتهن كله يُهدر على الكنس والطبخ والتربية نهاراً، وعلى ممارسة حقوقهن في إبلاغ أزواجهن النشوة ليلاً. هن مشغولات لدرجة أنهن ينسين أن يطالبن ببلوغ النشوة التي يحج لها أزواجهن، فكثرة المشاغل تلهي فكرهن وبالهن. هذا الرجل الفحل المفعم بالذكورة المفتولة الشوارب ينام كالقتيل، أو كالقاتل، بعد الحج إلى نشوته وهي، المشغولة دائماً، تمسح وترتب ثم تخلد للنوم محاطة بالوحدة «العربية»، كي تصحو بعدها على أعمال شاقة تشغل كل وقتها.

فعن أي وقت يتكلم الكافرون؟ لا وقت لها للمطالبة بحقوقها ولا لنا للمماطلة بهذه الحقوق. لذلك قررنا نحن، فحول المجتمعات العربية العريقة الغريقة النزقة، وبالإجماع، في استفتاء ديمقراطي مكلل بنخوة الرجولة والشهامة التي طالما رفعت عقالنا أمام القبائل والأمم الأخرى، قررنا أنَ نضطلع بالدور الريادي في المطالبة بحقوق المرأة في...

قاطعتني رفيقتنا بعد أن خيمت عليها حالة انشداه، وتلبد رأسها بما قلت، تبحلق بالحائط متمتمة وكأنها تحاول جاهدة قراءة ما فشلتُ في الإفصاح عنه من على الحائط:

Salim... be careful I'm feminist.

في اليوم التالي، بعد أن تخطت الحالة، أقسمتْ برحمة سيمون دو بوفوار بأنها ستبقى نسوية ـ فيمينيست ـ حين أخبرتها، متعمداً استفزازها، بأن «feminist» قد تُترجم، مجازاً، بلهجتنا العامية إلى «نسونجي».

استوعبت سخريتي لاحقاً حين أخبرتها بأن ما كنت ذكرته لا يتعارض أبداً مع تلك الترجمة. وإذاك علقت مبتسمة، وأظنها مجاملة:

I know... you could be a feminist even more than me!

مما حفظني سليماً حتى اللحظة.

* كاتب فلسطيني مقيم في أبوظبي

تداعيات

حكاية عطر

رجاء بكرية*

■ كأولّ مرّة....أجل كأولّ مرّة لمحتك خلف مفاتيح الصوت. أردد لنفسي كأولّ مرّة، كأنّ في استحضار هذه الكأنّ استحضارا لوجهك ساخنا بين يديّ.

صباح حيفا أهديه أولّ أيّام العام إليك ثمّ إليك ثمّ إليك. ليس في القطيعة اعتراف ضمني بفكرة النسيان. على العكس تماما أفهم القطيعة استراحة القلب من برد اللّوعة وحرّ الحاجة.

هل تجرؤ أنت مثلا على القول أنّك غير مشتاق للفّة مرفقي حول عنقك؟ وغير مشتاق لانكماش صدري في حضنك؟ وأنّك لا تفكّر مثلا بأولّ مرّة همست لك أنّني موجوعة برائحة الصمت الّذي تنعفه حول قلبي؟ وأنّك لا تشتهي فمي كما أشتهي سخونة أذنك؟ كم من العشّاق يعرف أنّ خلف تلك البقعة السريّة مدينة إلدورادو جميلة وساحرة كلّما مسحتها بإصبعك تألّقت ثمّ سخنت ثمّ ثارت وانسعرت. لا بل كقنديل علاء الدّين كلّما مسحت غبرة عن زجاجه انكشف عن مارد بأبعاد كون مشتهى.

أشتاق إليك في أولّ يوم كما اشتقت إليك دائما. ليت أشواقي بحدّة قراراتي إذن لما بقيت حتّى الآن أدور حول قلبك دوران الأرض حول شمسها. لماذا أشتاق! لا إجابات على هواجس متبدلّة. هكذا هي الأشواق تشمّع البدن والذّاكرة بعويل العطر، أقصد الضوء، لا بل أقصد الفقد، والفقد يجمع الإثنين معا. العطر والضوء معا. لا عطر بدون ضوء، ولا ضوء في الدنيا يشتعل بلا عطر. وكلّ عطورك اخترتها أنا بفنّ المواسم. كنت أحتال على بقائي فيك بالعطور الّتي أنتقيها من أفخر واجهات العطر. وكأولّ مرّة أزخمك برائحة الأماكن الّتي تأخذك إليها عطوري. لكل عطر حكاية ولكلّ حكاية شكل قبلة تبدأ بالكاحل وتنتهي بقرنفل الصدر، أو الكتف أو لا أعرف أين. وكلّ المطارات تقريبا تعرف حكاية عطورك معي وعطوري معك.

ألكلّ رجل وامرأة حكاية عطر يرسمان بنفسجها على جدران المطارات؟ أمّا عطرك إليّ فقليل ونادر. مرّة واحدة، وعلى بعد خطوات من دخول أرقام السنة الجديدة باب بيتي معك. كان مساء استثنائيا رقصت له الجدران وأزهرت أعناق الشموع بالوله. إثنان وثلاثون شمعة لفّت بي وبك بالونات البيت وفوانيسه الصغيرة. قلت لك،

«الفوانيس تستحضر روحانية الغياب، وأنت غيبي وغيابي، لا أريد سواك هذا المساء، هيّا إذن نضيء معا تسعة فوانيس، نصف عمري وعمرك».

ضحكت يومها ككلّ مرّة يستهويك اختلاف طباعي وكسري لمألوف ما يتفقّ عليه أناس المدينة، هل قلت أحبّ ضحكتك؟ ضحكة العسل، تضحكها حين ينتشي قلبك بفتنة العطر، والسحر. قلت:

«سأشعل معك ستة، الثلاثة فوانيس الأخيرة نتركها للعام المقبل».

أغريتك بكحل عيني الحاد:

«وإذا وعدتك بمجّة بدن؟»

داخت نظراتك ودخت معك، لقبلتك مذاق ذاكرة حارقة الوجد، بلون نبيذ يراقص ظل رغبة.

لم تشعل الفوانيس الثلاثة. انشغلنا بالبالونات والموسيقى، وعطر البدن. هذا عطر الحكاية كلّ الحكاية الّتي لا تتوقف عن الدوران مع أشهر السنّة وتقع في مطبّ الشك والخيانة.

هذه السنّة يا سيّدي لا كبريت لفوانيسي ولا أنت لألق شموعي. ولن أطمح إلى تكرار الخيانة، يجب أن تعرف السنة مذاق الفقد. مذاق امرأة لا تعرف ارتشاف عسلك.

أرجوانة

بعيد أيّام على دخول أرقام السنّة ساعة الحائط قررت أن تفاجئني بالكنزو. لم أتوقّع شكل الزّجاجة ولا توقّعت أن تتحدّى الشتاء وعطل سيّارتك البغيضة وتصل إلي. ورغم أنّ سمكة الزّينة أرجوانة ماتت قبل وصولك إلا أنني اجتهدت في الحفاظ على قدر معقول من الفرح، حتّى لا أربكك بمزاجيّاتي. كنت كالأطفال تماما لا أحبّ الموت ولا موت أسماك الزّينة، ولا السّمكة الّتي جئت بها تذكيرا بعيد ميلادي الأخير.

ترى لماذا جميع الكائنات الّتي تأتي بها تموت أو تعلن انتحارا مفاجئا عند فواصل البداية؟ أرجوانة كانت سمكة جميلة، بذيل طويل جدا، وعين حادّة جدا، أشدّ سوادا من العتمة. ولحظة رأيتها ابتسمت لك، وهمست ذكّرتك بي أليس كذلك؟ ذيلها المتموّج كتموّج شعري تحت كفّك، يا عيني على شعرك، وبدني تحت رَجف قبُلك.

لكنّك يا سيّد أشواقي لَم تتذكّر هذه السنة شوقي ولا ميلادي ولا أهديت قلبي عصفورة أو سمكة. هذه السنة اجتذبك شعر يشبه شعري وقفلة صوت أقلّ دفئا من قفلة صوتي. أصبحت رجلا أشدّ انفتاحا على الصراخ، وانبهار الصوت المغسول بلسعة الموج لم يعد فاتنا في عرف مقاييسك الجديدة. لم يعد جديدا عليك.

لقد رجعت جيلا إلى الوراء. وفهمتُ أنّك تجرّب نفسك ليس من خلالي. كيف حدث ذلك؟ لا يمكن لهذه الأسئلة الغبيّة أن تستدرجني. هذا ما حدث وحسب. يحدث للرّجال أن يصابوا بلوثة أو نزوة ذاكرة. رأيت ذاكرتي الحميمة معك في قدميك وفتنتي مطويّة مثل صفحة جريدة في جيب سترتك الدّاخلي، كأنّني لن ألاحظ رقصتك الليلية مع المرأة أو النساء اللواتي سيجرؤن على قنص رغبتك بشعورهن الطويلة وقلّة تجاربهن. لا تفكّر كثيرا وأنت تجرّب رقصة الشمع وتعثر فجأة على شعر أقلّ نعومة من شعري. ولا ترتبك أمام صاحبة الشعر الّتي اختارت أن تقضي معك السّاعات الأولى من العام الجديد. در معها وارقص ما شئت. لا ترتجف، وكن فنانا كما أراك بعيون قلبي، فأنت دون شك تستأهل هذه الرّقصة اليتيمة. أمّا أنا يا سيّدي فأريدك أن تعرف أنّني رفضت كلّ الرّجال الّذين قدّموا أوراق انتساب لسنتي الجديدة، وقرّرت أن أرقص ساعات السنة الأولى كما كنت غالبا، وحيدة. ألست أنا من علّمتك رقص الشمع تحت فتيل الرّغبة؟ لذلك لا تنس ألاّ تخيّب ظنّي بمهاراتك ككلّ سنة!

كلّ عام إذن وأنت لكلّ النساء! لكلّ اللواتي كنّ وسيأتين، لعلك، يا سيّدي تشبع وتتوقف عن تسجيل ضربات جزاء ضائعة على هواء هواتف غير معنونة.

لارنكا

لعلّك لم تفهم، لعلّك لم تفهم جيّدا..

أنّني امرأة لا تخاف الكلمات الهامسة الّتي يضلّل بها الرّجال نساءهن. في لارنكا، جرّبت أن أقول لك، في لارنكا تأكّدت أنّك مع امرأة سواي. فزعت حين جئت تختبر ذاكرتي برائحة عطر لن تهديه إلي.

«لمن تريده؟» سألتك باحتداد.

«ليس لأحد»، أجبت وانتزعت الزّجاجة منّي على عجل وذبت بين الناس.

هل توقعتَ مثلا أنّني كنتُ فقط أتأكد أنّك بدوني منذ زمن، وأنّك تخون قلبي منذ زمن، وأنّك لا تكفّ عن دفع فواتير هواتف باهظة الأثمان منذ زمن، وأنّك تسافر إلى مدن لا أعرفها منذ زمن. كل ذلك يحدث منذ زمن وأنت تجهل سبب عصبيّتي منذ زمن.

حين ضقت ذرعا بنفسي بادرت إلى مشروع سفري الأحمق في عمق محيط وسيع معك كي أتأكّد من هواجسي تجاه هواتفك المشغولة دائما، وزياراتك الصباحيّة لأصدقاء خرجوا من الغيم وملأوا ساعاتك الحرّة، وهمسك الحافل بالرّقة؟ أين أخفيت مفردات رقتك إلي، أتحت درع السلحفاة الحجرية، أم الدرع الّذي لبسك منذ صادقت حكايات الشاطر حسن والجنيّة؟ كان يجب أن أفصل في شكل ضربات الجزاء الّتي سأطلقها حرّة إلى الشبّاك. لأنّي أحبّك كان يجب أن أقرّر عطر الهدف!

أمام واجهات السوق الحرّة بقيت مشغولا بهاتف أبله وحنجرة امرأة لا تنجح في القبض عليها. كنت أتابعك بصمت أُحسد عليه. أيّ شيطان ألقاني في طريقك؟ لكن لامبالاتي لم تطل، حين وجدتك مشغولا باختبار الزّوايا الّتي تلتقط إرسالا. في عرض البحر يا سيّدي يختبر الناس مساحات أرواحهم وليس مساحات إرسالهم. أيّها الأحمق، فكّرت أن أهزّك، أنظر إلى سحر الحياة المظلمة في قلبك. لكنني لم أقل. كنت في مكان آخر بعيد عنّي أبعد ممّا يمكن أن أتخيّل.

هل أبدو امرأة غبيّة مثلا؟ قرّرت أن أستفزّك حين وجدتك تتكتك رقما أمام الشاطىء وتبتسم. لم أسألك لمن هاتان الغمّازتان، ولم تقل أنت، لكنني منذ تلك اللحظة بدأت أعدّ الأيّام الّتي بقيت لي معك. أعد خطواتي معك إلى وجبات الطعام، ساعات النوم، والكزدرات الليلية حول الباخرة. بدأت أعدّ قطرات العطر الباقية في قعر الزّجاجة. وما لم أفهمه حتّى هذه اللحظة قدرتك المرعبة على تفعيل ماسح الأرقام وماسح الذّاكرة، والأحذية بنفس الحذق والسرعة. ديليت وينتهي كلّ شيء.

* كاتبة من فلسطين